قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ (عاد)

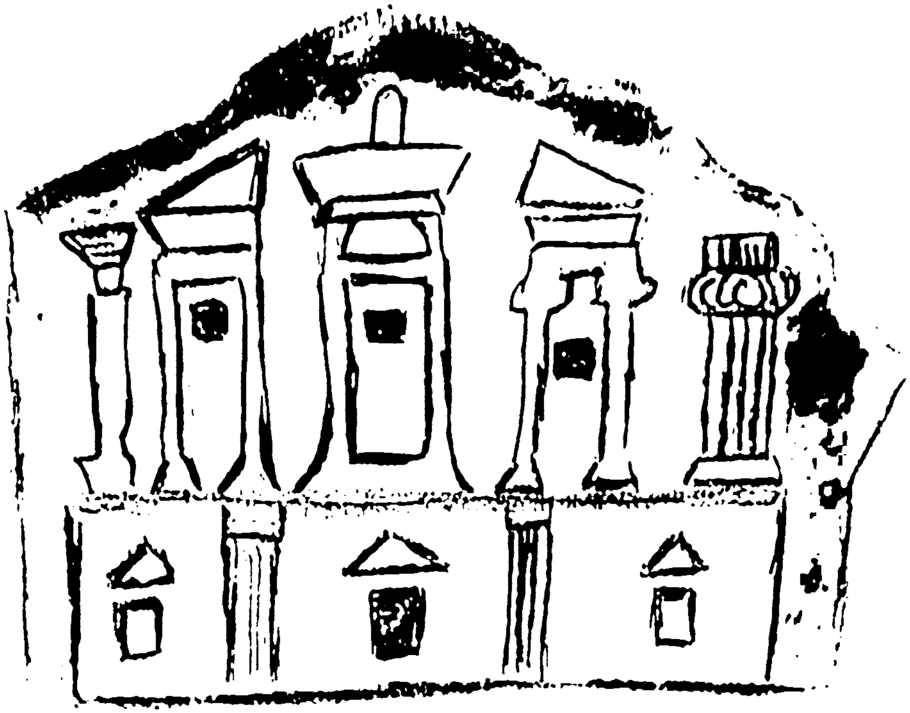

نسبهم

كانوا عربًا يسكنون الأحقاف باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر. فهم من العرب البائدة(١). وينتمي قوم عاد كما دلّت المراجع إلى العرب العاربة، التي استعملت العربيّة وتحدثت بها، وكما تشير الروايات بأنّهم انحدروا من ذريّة رجل، يقال له عاد من سلالة سام بن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد سبق وجودهم وجود العرب المستعربة، التي انحدرت منها نسل نبيّ الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إسماعيل.

موقعهم الجغرافي

ذكر ابن بطوطة: أن الأحقاف، وهي منازل عاد، وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر، وحوله قرية لصيّادي السمك. وفي الزاوية: قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعًا عليه مكتوب: هذا قبر هود بن عابر، والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف، لأنّها بلاده، والله أعلم(٢).

الأحقاف هي منازل عاد، قيل كانت بالشام، وقيل هي بلاد رمل بين مهرة وعدن، وقيل في بلاد الشحر الموصلة للبحر اليماني، وقيل هي

---

(١). محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ (٤٦٦/٩).

(٢). رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧ هـ (١٢٦/٢).

من حضرموت وعمان، والصحيح: أن بلاد عاد كانت باليمن، ولهم كانت إرم ذات العماد، والأحقاف جمع حقف[١].

قال الأصمعي: الأحقاف هي الآن تلال من الرمل بين عدن وحضرموت، وكانت مساكن عاد أعمر بلاد الله، وأكثرها عمارة وزرعًا وشجرًا، فلما سلط الله تعالى عليهم الريح طمها بالرمل، وهي إلى الآن تحت تلك الأحقاف، جعلها الله تعالى عبرة للناظرين وخبرة للغابرين، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩]. وبها قصران من قصور عاد[٢].

صفاتهم

عاد قوم هود اشتهروا أنهم كانو عتاة، أجسامهم كبيرة ، أقوياء متمردون، عبدة للأصنام. وقيل يبلغ طول أحدهم اثني عشر ذراعًا، وفي كتاب أبي حذيفة ستين ذراعًا، والله أعلم[٣].

---

(١). انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحِميري، ت: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، دار السراج، ط٢، ١٩٨٠م (ص١٤).

(٢). آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت (ص٦٦).

(٣). البدء والتاريخ: المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر (٣/٣٧).

حياتهم

إن قوم هود، وهم عاد أصحاب أوثان، يعبدونها من دون الله، اتخذوا أصنامًا على مثال ود وسواع ويغوث ونسر، فاتخذوا صنمًا، يقال له: صمود، وصنمًا يقال له: الهبار، فبعث الله إليهم هودًا. فكان هود من قبيلة، يقال لها: الخلود، وكان من أوسطهم نسبًا، وأفضلهم موضعًا، وأشرفهم نفسًا، وأصبحهم وجهًا، وكان في مثل أجسامهم، أبيض جعدًا، بادي العنفقة، طويل اللحية، فدعاهم إلى الله، وأمرهم أن يوحدوا الله، ولا يجعلوا مع الله إلهًا غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، لم يذكر أنه أمرهم بغير ذلك، ولم يدعهم إلى شريعة، ولا إلى صلاة، فأبوا ذلك وكذبوه.

وقد ردت قصة هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ و(قومه عاد) في عدد من سور القرآن الكريم بأساليب مختلفة، وخلاصتها: أن عادًا الأولى هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وأول أمة أهلكها الله تعالى بذنوبهم وشركهم بعد أمة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ولهذا يأتي ذكرهم في القرآن بعد ذكر قصة قوم نوح مباشرة في سور عدة من كتاب الله تعالى.

وكانت عاد قوم هود أقوياء ، عبدة أصنام فأرسل الله تعالى إليهم أخاهم هودًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ويرغبهم في طاعته واستغفاره، ويعدهم على ذلك بخيري الدنيا والآخرة... ويتوعدهم على مخالفته بالعقوبة في الدنيا والآخرة، فكذبوه وردوا عليه بما أجمله القرآن الكريم، وكان هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قد اعتزلهم في حظيرة هو ومن معه

من المؤمنين، فلم يصبهم من تلك الريح إلا نسيم العليل الذي تلين به الجلود وتلذ به النفوس.

وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويقال: إن هودًا هو عابر بن شالخ بن سام بن نوح، ويقال: هود بن عبدالله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذكره ابن جرير[1]، وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر، يقال لها: الشحر، واسم واديهم مغيث، وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر:٦-٧]، أي مثل القبيلة. وقيل: مثل العمد. والصحيح الأول، وفي صحيح ابن حبان، عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: «منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر»[2]. ويقال: إن هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من تكلم بالعربية. وزعم وهب بن منبه: أن أباه أول من

(١). مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي فخر الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١٤٢٠،٣هـ (٢٩٩/١٤)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، ت: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م (٢٤٥/٤).

(٢). أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٦/١-١٦٧)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٧٦/٢-٧٧ رقم٣٦١)، بينما ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٣٦/١ رقم٢٦١).

تكلم بها. وقال غيره: أول من تكلم بها نوح. وقيل: آدم وهو الأشبه. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: العرب العاربة. وهم قبائل كثيرة منهم: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وعبيل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم. وأما العرب المستعربة، فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل بن إبراهيم عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم، الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

والمقصود: أن عادًا وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكان أصنامهم ثلاثة: صد، وصمود، وهرا. فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢]

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٥٠-٦٠].

وقال تعالى في سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون٣١-٤١].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦]، وقال تعالى في الذاريات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢]، وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٨-٢٢]، وقال في سورة الفجر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ

﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفي سورة ص، وفي سورة ق، ولنذكر مضمون القصة مجموعًا من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار. وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بين في قوله لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش. وقال في المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، وهم قوم هود على الصحيح. وزعم آخرون: أنهم ثمود. لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]. وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم، كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة، فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات، ثم لا خلاف أن عادًا قبل ثمود.

والمقصود: أن عادًا كانوا عربًا جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلًا منهم يدعوهم إلى الله، وإلى إفراده بالعبادة، والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلما أمرهم بعبادة الله، ورغبهم في طاعته واستغفاره،

ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، أي ليس الأمر كما تظنون، ولا ما تعتقدون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة، لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه، والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجرًا، ولا يطلب منهم جعلًا، بل هو مخلص لله ﷻ في الدعوة إليه، والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود:٥١]، أي ما لكم عقل تميزون به، وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين، الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحًا، وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه، ولا أسألكم أجرًا عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع، ولهذا قال مؤمن يس: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٢١-٢٢]. يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به. وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته، ولا برهان نصبته، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك،

فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك، وهو قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٤-٥٥]، أنتم وهي جميعًا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه، وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة، ولا طرفة عين، فإني لا أبالي بكم، ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، أي أنا متوكل على الله ومتأيد به. وواثق بجنابه، الذي لا يضيع من لاذ به. واستند إليه، فلست أبالي مخلوقًا سواه، ولست أتوكل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه، وهذا وحده برهان قاطع على أن هودًا عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء، ولا نالوا منه مكروهًا، فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه، وفساد ما ذهبوا إليه، وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قبله في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١]. وهكذا قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ

وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣]، استبعدوا أن يبعث الله رسولًا بشريًا، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديمًا وحديثًا، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]، أي ليس هذا بعجيب، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته. وقوله: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٨]، أي يموت قوم ويحيا آخرون. وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع، وأرض تبلع.

وهذا كله كذب، وكفر وجهل وضلال، وأقوال باطلة، وخيال فاسد بلا برهان، ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم، الذين لا يعقلون ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣]. وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، يقول لهم: أتبنون بكل

مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلًا كالقصور، ونحوها تعبثون ببنائها، لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر:٦-٨]، فعاد إرم هم عاد الأولى، الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة، وهي تتنقل في البلاد فقد غلط وأخطأ. وقال ما لا دليل عليه. وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، قيل: هي القصور. وقيل: بروج الحمام. وقيل: مآخذ الماء. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]، أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعمارًا طويلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣٠-١٣٥]، وقالوا له فيما قالوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، أي أجئتنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا، وما كانوا عليه، فإن كنت صادقًا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإنا لا نؤمن بك، ولا نتبعك ولا نصدقك، كما قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨]، أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين، أي أن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك، وأخذته من كتب الأولين، هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين، وأما

على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين، أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به. ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]. قال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١]، أي قد استحققتم بهذه المقالة الرجس، والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها، وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلًا ولا برهانًا، وإذا أبيتم قبول الحق، وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا، فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم، وبأسه الذي لا يرد، ونكاله الذي لا يصد. وقال تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٣٩-٤١]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٢-٢٥]، وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية، كما تقدم مجملًا ومفصلًا، كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ

مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٧٢]، وكقوله: ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ [هود:٥٨-٦٠]، وكقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون:٤١]. وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء:١٣٩-١٤٠].

وأما تفصيل إهلاكهم: فلما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الأحقاف:٢٤]، كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا، فرأوا عارضًا في السماء، وظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، أي من وقوع العذاب. وهو قولهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢]، ومثلها في الأعراف.

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ها هنا الخبر. الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق قال: فلما أبوا إلا الكفر بالله ﷻ، أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك. قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج منه، إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته. وكان معروفًا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلًا

يقال له معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد، واسمها: جلهدة ابنة الخيبري. قال: فبعث عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا، ليستقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر، تغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية، وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعرًا يعرض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يصبحنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادا قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش يأتيهم جهارا ولا يخشى لعادي سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم، وهو قيل بن عتر، فأنشأ الله سحابات ثلاثًا: بيضاء، وحمراء، وسوداء. ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب. فقال: اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه مناد: اخترت رمادًا رمددًا، لا تبقي من عاد أحدًا،

لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته همدًا، إلا بني اللوذية المهدا. قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم. قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها. قيل بن عتر بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد، يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا. فيقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، أي كل شيء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها، وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد، يقال لها: مهد، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صعقت، فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. والحسوم: الدائمة. فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك. قال: واعتزل هود عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود، وتلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة، وذكر تمام القصة.

وقد روى الإمام أحمد حديثًا في مسنده يشبه هذه القصة، عن الحارث وهو ابن حسان، ويقال: ابن يزيد البكري. قال: «خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز

من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟

قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا، قال: فجلست، قال: فدخل منزله أو قال: رحله، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: هل كان بينكم وبين بني تميم شيء. فقلت: نعم. قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزًا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: معزى حملت حتفها. حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: هيه وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عادًا قحطوا، فبعثوا وفدًا لهم يقال له: قيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء. فنودي منها: خذها رمادًا رمددًا لا تبقي من عاد أحدًا. قال: فما بلغني أنه بعث عليهم

من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي، هذا من الريح حتى هلكوا. قال أبو وائل: وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدًا لهم، قالوا: لا تكن كوافد عاد»[1]. وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب به[2]. ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم ابن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه. وهكذا أورد هذا الحديث، وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير، وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة، فإن فيما ذكره ابن إسحاق، وغيره ذكرًا لمكة، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم، كما سيأتي، وعاد الأولى قبل الخليل، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه: أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر. وقد قال ابن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة، والعاتية الشديدة الهبوب ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٧]، أي كوامل متتابعات. قيل: كان أولها الجمعة. وقيل: الأربعاء. ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]. شبههم بأعجاز النخل التي لا رءوس لها، وذلك لأن الريح

(١). أخرجه أحمد (٢٥/٣٠٦-٣٠٨ رقم١٥٩٥٤)، وحسنه محققو المسند.

(٢). أخرجه الترمذي (٥/٣٩٢ رقم٣٢٧٤)، وحسنه الألباني.

كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه، فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩]، أي في يوم نحس عليهم، مستمر عذابه عليهم، ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠]، ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء. وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن، فإنه قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]. ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشئومة. وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد في أيام نحسات، أي عليهم. وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أي التي لا تنتج خيرًا، فإن الريح المفردة لا تنثر سحابًا، ولا تلقح شجرًا، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية. وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»(١). وأما قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٢١]. فالظاهر

---

(١). أخرجه البخاري (٢/٣٣ رقم١٠٣٥)، ومسلم (٢/٦١٧ رقم٩٠٠).

أن عادًا هذه هي عاد الأولى، فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود، وهم الأولى. ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية. ويدل عليه ما ذكرنا، وما سيأتي من الحديث عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، فإن عادًا لما رأوا هذا العارض، وهو الناشئ في الجو كالسحاب، ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير، فنالوا منه غاية الشر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾، أي من العذاب، ثم فسره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية، فلم تبق منهم أحدًا، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران، فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة، والقصور المشيدة، فكما منوا بقوتهم وشدتهم، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، سلط الله الذي هو أشد منهم قوة عليهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم. ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم، وغياث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شررًا ونارًا، كما ذكره غير واحد. ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة، وعذاب النار، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١]. والله أعلم.

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم، ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح، وما فيها ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»[1].

وقد رواه الطبراني، عن عبدان بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي، عن أبي مالك، عن مسلم الملائي، عن مجاهد، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس -كذا قال-: قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم فحملتهم البدو إلى الحضر، فلما رآها أهل الحضر ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها فألقي أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا»[2]. قال: عتت على خزائنها، حتى خرجت من خلال الأبواب. قلت: وقال غيره: خرجت بغير حساب.

وظاهر الآية: أنهم رأوا عارضًا، والمفهوم منه لغة السحاب. كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري، إن جعلناه مفسرًا لهذه القصة، وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا عصفت الريح، قال: «اللهم

---

(١). أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢١/١٢ رقم١٣٥٥٣)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (١٣٠٨/٤)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤١٠/٩).

(٢). أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢ رقم١٢٤١٦)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (١٣٠٩/٤).

إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به. وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]»(١). وعن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا قط، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، وقالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا، عُرِفَ ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عُذِّب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا»(٢). وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأخرجه البخاري(٣)، وأبو داود من حديث ابن وهب(٤). فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين، كما أشرنا إليه أولًا. فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبرًا عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات في القرآن خبرًا عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب.

---

(١). أخرجه مسلم (٦١٦/٢ رقم٨٩٩).

(٢). أخرجه أحمد (٤٠/٤٣٢-٤٣٣ رقم٤٢٣٦٩).

(٣). أخرجه البخاري (١٣٣/٦ رقم٤٨٢٩).

(٤). أخرجه أبوداود (٣٢٦/٤ رقم٥٠٩٨).

وقدمنا حج هود عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذكر حج نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، والله أعلم(١).

العبر والعظات المستفادة

قوم عاد وقصتهم مع سيدنا هود بها من العبر والعظات التي ينتفع بها حتى نتجنب الوقوع فيها دون الانتباه لذلك:

١. التقدم العمراني والصناعي والعسكري لا ينفع أصحابه ما لم يكن علىٰ منهج الله ورضاه.

٢. التباهي والتفاخر والغرور بالقوّة، والانحراف عن صراط الله المستقيم عاقبته إلىٰ سوء.

٣. المداومة علىٰ ذكر الله، وأداء حقّه وشكره علىٰ نعمِه.

٤. نعم الله كالرياح والأمطار جند لله، قد تتحول الىٰ عذاب بالمعاصي.

(١). البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق، (١/٢٨٢-٣٠٣).

٥. تأكيد طريق هلاك الأمم الكافرة واحد، يبدأ من الكفر بالله ثم الاغترار بالقوة المادية بعد ذلك محاربة الدين للانتهاء بنزول العذاب والهلاك.

٦. الدعاة إلىٰ الله عليهم التحلي بالإيمان، والتسلح بالصبر، والإخلاص في الدعوه بكلّ ثبات وعزيمة، واستعمال الأسلوب الأمثل لإيصال الرّسالة.